﴿سورة التكاثر﴾

وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما المراد بقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ ؟

والجواب: ألهاكم أى شغلكم عما يجب عليكم الانشغال به، وأصل اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمر مهم، والتكاثر هو المفاخرة بالمال والولد ومتاع الحياة الدنيا، قال الفخر الرازى وغيره: (والخطاب للمشركين بقرينة غلظة الوعيد بقوله: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤)**﴾، وقوله: ﴿**لَتَرَوُنَ الْجَحِيمَ (٦)**﴾ إلى آخر السورة، ولأن هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ) [(١)]، ولا يعنى أن يكون الخطاب للمشركين عدم انتفاع المسلمين به، بل هم أحرص ما يكون على عدم الانشغال بأعراض الدنيا الفانية عن الاستعداد للعمل للدار الباقية خوف أن يفاجئهم الموت وهم فى غفلة عن فعل الخير وانشغال عنه .

أما﴿ **حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)**﴾ ففيها قولان :

الأول: أنكم داومتم على هذا التكاثر حتى فاجأكم الموت ودُفنتم فى القبور وقُبرتم بها، فما أغنى عنكم تكاثركم ولا تفاخركم، ولا منع عنكم الموت الذى نزل بكم، وعبَّرت الآية عن الدفن فى القبور بالزيارة، والزيارة تعنى عدم المكث فى المكان لفترة طويلة دلالة على أن المدفون فى القبر لن يستقر فيه إلى الأبد، بل هو مقيم فى قبره كما يمكث الزائر فى زيارته وسرعان ما يغادر مكان الزيارة لينقلب إلى بيته ومستقره ، وكذا المقبور فى قبره يمكث فيه ما شاء الله ﷻ له أن يمكث ثم يُبعث منه لينقلب إلى مستقره النهائى إما فى الجنة وإما فى السعير، وعبَّرت الآية عن هذا الأمر بصيغة الفعل الماضى ﴿**زُرْتُمُ**﴾ مع أنه لم يحدث بعد بل

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/٤٥٧

سيزوروها ويقبرون فيها بعد موتهم دلالة على تحقق هذا الأمر وتأكد وقوعه حتى كأنه وقع بالفعل فصار ماضياً مقضياً .

ويتضح من هذا خطأ قول بعض الناس عن الميت الذى تم دفنه: (نُقِل إلى مثواه الأخير) لأن القبر ليس مستقره الدائم بل سيمكث فيه كما يمكث الزائر فى مكان زيارته ثم ينصرف عنه إلى مثواه الحقيقى الأخير نسأل الله ﷻ أن يحسن لنا المثوى.

الثاني: أن تكون (حتى) هنا بمعنى الغاية، والمعنى: بلغ بكم التكاثر والتفاخر إلى الحد الذى جعلكم تذهبون للمقابر من أجل التكاثر بأصحابها المقبورين فيها والتفاخر بمآثرهم، لا من أجل الاتعاظ والاعتبار، فتحول غرض زيارة القبور من أمر يذكركم بالموت ويقربكم من العمل الصالح إلى معصية تُضاف إلى سجل معاصيكم وتزيد من شهوة الكبر والعجب فيكم ، ويؤيد هذا المعنى ما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه السورة، فقد ذكر الواحدى وغيره أن سورة التكاثر قد (نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما لحا فتعاند السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، حتى زاروا القبور، فعدُّوا موتاهم فكثرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية) [1] .

المسألة الثانية: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟

الحقيقة كأنه يراها ولا ينكرها أو يكذب بها فهذا هو علم اليقين، فإذا رأى الحقيقة بعينه صارت عين اليقين، ثم إذا عايشها وتلبس بها وتعامل معها صارت حق اليقين، ولعل من أروع ما يُستدل به فى هذا المقام ما ذكره ابن القيم – رحمه الله – فى هذا الباب حيث ضرب مثالاً رائقاً ليوضح به هذه الدلالات الثلاثة، فقال: (وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٣٠٥، دار الباز للنشر والتوزيع، ط١، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

أخبرك أن عنده عسلاً وأنت لا تشك في صدقه،ثم أراك إياه فازددت يقيناً، ثم ذقت منه، فالأول: علم اليقين، والثاني عين اليقين، والثالث حق اليقين.

فعِلمُنا الآن بالجنة والنار علم يقين، فإذا أُزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق، وبرزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك عين اليقين، فإذا أُدخِل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حينئذ حق اليقين) [١].

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

أخرج مسلم فى صحيحه فى كتاب (الأشربة) قصة حدثت للنبى ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ﷺ من حديث أبى هريرة ﷺ قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟"، قالا الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا "، فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: "مرحباً وأهلاً"، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان؟" قالت: "ذهب يستعذب لنا من الماء"، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: "الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني"، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: "كلوا من هذه"، وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم") [٢] .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبى بكر ابن القيم ، ٤٠٣/٢، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ ه ، ١٩٧٣م .

(٢) صحيح مسلم، ١٦٠٩/٣، كتاب الأشربة، باب "جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك"ورقمه ٢٠٣٨.

وفى الحديث دليل على أن كل إنسان سيُسأل بين يدى الله ﷻ عما أنعم به عليه من نعيم الدنيا، لكن شتان بين سؤال الله ﷻ لعبده المؤمن ولعبده الكافر، فالمؤمن سيسأله الله ﷻ عما أنعم به عليه سؤال تعداد وبيان بخلاف الكافر حيث سيُسأل عن النعيم سؤال تقريع وامتهان، قال النووى – رحمه الله – فى شرحه للحديث: (وأما السؤال عن هذا النعيم فقال القاضي عياض: المراد السؤال عن القيام بحق شكره، والذى نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم وإعلام بالامتنان بها وإظهار الكرامة بإسباغها، لاسؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة والله أعلم) [1].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحى بن شرف النووى ، ٢١٤/١٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .